إنسانية الإسلام

في السمو الأخلاقي

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

« ١ »

العدل.. في أسمى صوره

■ منذ مئة سنة واليهود يتعاملون مع المسلمين والعرب بكل مكرٍ وقسوة ووحشية عزَّ أن يكون لها مثيل في التاريخ الإنساني، وقد تضاءلت جرائم التَّتار والصليبيين إلى جرائهم.. وَقَدْ دنَّس هؤلاء اليهود أيادي الإسلام وحضارته البيضاء عليهم، عُندما كان محكوماً عليهم بالإبادة الجماعية والتعميد القهري لأبنائهم ومصادرة كل أموالهم في إسبانيا على عهد القوط، فجاء الإسلام ورحمهم من كل هذا وعاشوا في إسبانيا أكرم حياة، وتبوؤوا أرفع المناصب(!!) ولما طُرد المسلمون من إسبانيا شرّ طردة وتعرضوا لمحاكم التفتيش خانهم اليهود، لكن خيانتهم لم تنفعهم فعاملهم أبطال محاكم التفتيش بمثل ما عاملوا به المسلمين وطردوهم شرّ طردة..!!.

■ وبعد طرد أوروبا الجماعي لهم بعد سقوط إسبانيا سنة (١٤٩٢م) لم يجدوا ملجأً إلا بلاد الإسلام والشرق، فعاشوا أطيب حياة في ظل الحضارة الإسلامية أيام المماليك والعثمانيين بل وبدايات عصر الاستقلال.. لكن الغدر لم يفارقهم أبداً، فكانوا في كل ذلك يكيدون ويخططون لقطع الأيادي التي امتدت لإنقاذهم، وامتصاص دماء من أسكنوهم في بلادهم، لأنهم -كما وصفهم الكتاب المقدس- لا يعرفون الوفاء ولا الرحمة، بل هم كالأفاعي السامة، وكالجراثيم التي تأكل أفضل ما في الجسم وتقتله في الوقت نفسه!!.

■ ونحن نقدم موقفاً واحداً ضمن آلاف المواقف الدالة على عظمة حضارة الإسلام في العدل والمساواة والرحمة، حتى بهؤلاء اليهود الذين لم يعرف قاموسهم أبداً معاني الأخلاق والإنسانية والرحمة!!.

لقد أراد السلطان سليمان القانوني الذي بلغت القوة الإسلامية في عهده أوج عظمتها أن يبني مسجداً باسمه في (إسلامبول) المعروفة الآن باسم (اسطنبول).. وقد بحث رجال السلطان عن أفضل مكان يكون صالحاً لهذا المسجد العظيم، فاتفقوا جميعاً في نهاية بحوثهم على مكان معين فسيح جميل، لم تكن هناك أية مشكلة في البناء فيه إلا مشكلة صغيرة هي، أن يهودياً يملك كوخاً صغيراً بداخل هذا المكان، ولا بُدَّ من إزالته قبل المباشرة في البناء.

وبأمر من السلطان ذهب رجاله لشراء الكوخ من اليهودي عارضين عليه ثمناً مناسباً يستطيع أن يشتري به بيتاً أفضل من هذا الكوخ.. لكن اليهودي الماكر كان يعرف عدل السلطان، فرفض بيع الكوخ.. وعبثاً حاول رجال السلطان بأمر من السلطان.. أن يشتروا منه الكوخ بأضعاف هذا الثمن الذي عرضوه عليه سابقاً.. لكنه كان لئيماً فرفض بيع الكوخ تماماً.. وعندما عجز رجال السلطان عن التفاوض مع اليهودي أبلغوا السلطان بما انتهوا إليه، آملين أن يأخذوا الإذن بطرد اليهودي المعاند من مكانه وهدم الكوخ.. ولكن السلطان رفض تماماً هذا الاقتراح.. ثم فكّر وقرر في نفسه أمراً، هو أن يذهب هو بنفسه لمفاوضة اليهودي في بيع الكوخ.. وفوجئ الجميع وأدهشهم الأمر، ولكن هكذا فعل السلطان.. وذهب -فعلاً- سليمان القانوني بنفسه، ونزل عن

جواده، ودقَّ باب الكوخ على اليهوديّ.. وفتح اليهوديّ الباب، ففوجئ بالسلطان وحوله بعض رجاله، وأذْهله حضور السلطان، وطلب منه بيع الكوخ بكل تواضع وبأيّ ثمن... بل وقد عرض عليه السلطان أضعاف المبلغ الذي عرضه عليه رجاله سابقاً.. وسرعان ما وافق اليهوديّ على هذا العرض السّخي الذي قدمه له السلطان.. بنفسه..!!.

وهكذا بني جامع السليمانية -من أضخم المساجد في تركيا- والأهم من ذلك أنه مسجد بُني على التَّقْوى.. وَقدَّمه لنا -بهذا الموقف- صَفحة رائعة من صفحات (العدل) و(الكرم) و(الرحمة) مع من لا يعرفون كل هذه المعاني.. ومع من يتعاملون مع المسلمين في العالم كله الآن بكل غدر ووحشية.. ولله الأمر كله، والعاقبة للمتقين، مهما طغى الطاغون، وظلم الظالمون!!.

«٢»

الإخلاص وإنكار الذات

■ الإخلاص سرّ القبول والنجاح في كل عمل، وكل عمل مجرد من الإخلاص سرعان ما يذبل ويُفتضَح أمرُ صاحبه، ومهما كان ظاهر العمل طيِّباً إلا أنه مجرد من الإخلاص، فإنه يردّ على صاحبه، فلا يستفيد منه ديناً ولا آخرة.. وأعتقد أنهم عندما قالوا هذا المثل: (اتق شرّ من أحسنت إليه) كانوا يقصدون الذي أحسنت إليه وتنتظر منه المعاملة بالمثل، لكن الذين يبتغون بإحسانهم وجه الله وحده، ولا يطمعون في الناس، هؤلاء لا يأبهون -أصلاً- بموقف الناس منهم، حتى وإن أحزنهم غدر الغادرين.. لأن ما عند الله سيعوضهم خيراً أعظم من كل جزاء دنيوي!!.

■ وقد قدَّم لنا تاريخ الإخلاص والزهد فيما عند الناس صفحة رائعة من حضارتنا تحتاج إلى تتبّع وتأريخ...

ولا تخلو حياة عالم كبير ولا مجاهد عظيم ولا زاهد من الزهاد من صور كريمة تعكس إخلاصه وإنكاره لذاته وتجرده لله.. وقد بلغ بعضهم في ذلك مبلغاً عظيماً...

لدرجة أن الإمام السَّجاد (الذي لقب بالسجَّاد لكثرة سجوده) علي ابن الحسين الملقب بزين العابدين (رضي الله عنه) اكتشفوا بعد موته عشرات البيوت التي كان يحمل لها بنفسه الصدقات متنكراً في جوف

الليل، وأصحاب هذه البيوت لا يعرفون أن الذي يحمل لهم القوت بنفسه هو الإمام الكبير على بن الحسين بن علي.. سبط رسول الله عليه الصلاة والسلام...

■ وفي التاريخ كله، عبْر بلدان حضارة الإسلام الكثيرة تلمح في كل مدينه عَلَمَاً من الأعلام يعمل كثيراً من هذه الأعمال دون أن يشعر به أحد.. فهو لا يريد إلا (وجه الله) ولا يسعى لشهرة تحبط عمله، أو رياء قد يمنع قبول الطاعة..

ومن أطرف ما ورد في باب الإخلاص وإنكار الذات قصة وليّ من الأولياء زهد في الدنيا كلها، حتى في أن يعرف الناس أنه عالم فقيه من أكبر فقهاء عصره.. وكان اسم هذا الولي الأصلي (حامد آقصر إيلي) لكنه عرف بين أهل مدينة (بورصة- بتركيا) باسم (صمونجي بابا) لأنه كان يبيع نوعاً من الخبز يخبزه بنفسه ويمتاز بنظافته ولذّته يسمى خبز (الصمون)، وكان (حامد - صمونجي بابا) قد سافر في طلب العلم في الشام وتبريز وأردبيل بإيران، والتقى بالعالم الكبير علاء الدين الأردبيلي ولازمه وبقي في خدمته ينهل من علمه سنوات عديدة، وتعلّم منه التدرج في مسالك التقوى والزهد، ثم عاد ليستقرّ في مدينة (بورصة) في عهد السلطان بايزيد الأول خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وفيها صنع لنفسه فُرْناً في بيته يخبز فيه، ويبيع الخبز، ويعيش على هذا، ويتفرغ بقية وقته للعبادة والعلم.. وما رغب قطّ أن تُعرَف حقيقة علمه أو ورعه أو زهده أو فضله...

■ وقد أتت الرياح بما لا تشتهي السفن.. فعندما أتمَّ السلطان (بايزيد الأول) بناء مَسْجده الجامع الكبير المعروف حتى اليوم باسمه - قرَّر افتتاح المسجد بخطبة الجمعة فيه أثناء حضوره... وعندما حان وقت الخطبة أشار السلطان إلى العالم الكبير (أمير سلطان) أن يلقي الخطبة، وكان (صمونجي بابا- بائع الخبز) حاضراً، وكان العالم (أمير سلطان) يعرف حقيقة علمه وفضله فاستحيا أن يلقي الخطبة أمامه.. ولهذا وقف أمام المنبر، ثم أشار إلى (صمونجي بابا) وقال للسلطان وللحاضرين: (ليس في هذا الجامع من هو أحق من هذا الرجل (صمونجي بابا - البائع للخبز) بإلقاء الخطبة في هذه المناسبة العظيمة.. وكما يقول المؤرخ والباحث التركي المعاصر (أورخان محمد علي)، فقد اندهش الحاضرون من هذا الكلام، وأحسَّ (صمونجي بابا) بحرج شديد، وشعر بأن أمره قد انكشف.

لكنه لم يملك إلا أن يقوم من مكانه مضطراً ويتجه إلى المنبر، والأنظار مصوَّبة إليه، وقبل أن يصعد المنبر مال على أذن العالم الكبير (أمير سلطان) وهمس في أذنه معاتباً: لقد كشفتني أمام الناس جميعاً.. ماذا فعلت يا أخي؟!..

وقد ألقى (صمونجي بابا) خطبته في تفسير سورة الفاتحة من سبعة وجوه فكان تفسيره رائعاً أخذ بمجامع القلوب..

لدرجة أن أحد العلماء الكبار الحاضرين قال: إن تفسيره الأول للفاتحة فهمه الجميع، والثاني فهمه البعض، والثالث فهمته القلة (أي الخاصة) والرابع إلى السابع كان فيضاً إلهياً فوق طاقة إدراك الجميع، لكأنه كان يتكلم من أنوار سماوية علوية!!.

وانتشر خبر (صمونجي بابا) في أرجاء العاصمة التركية آنذاك (بورصة)...

وبعد يومين رحل الوليّ الصالح عن المدينة، إلى مدينة أخرى يبيع فيها الخبز.. وينشر الخير بطريقته الخاصة.. بعيداً عن رائحة الشهرة والرياء.. رحمه الله..

■ وكم في حضارتنا من صور رائعة يرتفع فيها المخلصون المتواضعون إلى درجة ملائكية.. مع علمهم وفضلهم وقدرتهم على أن يكونوا في أرغد عيش وأرفع مكانة.. ما.

«٣»

أخلاقنا الحضارية.. فوق المصالح والأهواء

■ في البدء كانت الروح.. فالإنسان نفخةٌ من روح الله... وبغير الروح يصبح الإنسان مادة أو عقلاً مجرداً من معانيه الإنسانية والروحية والأخلاقية في هذا العالم.

فليس بالمادة أو العقل وحدهما تصنع الحضارات الصحيحة المتوازنة الملائمة لكل قوى الإنسان وطاقاته!!.

■ ويشير العلامة عبدالرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) إلى أن رقي الأمم لا يتحقق بتوافر القوة المادية أو رقي العقل (العلمي أو العملي) فحسب، بل الأهم من هذين الأمرين الضروريين (وجود فكرة أخلاقية) تكون صمام أمان للمجتمع».

■ ويوضح الفيلسوف (غوستاف لوبون) قيمة (المعيار الأخلاقي) فيقول: «إن الانقلاب يحدث عن حياة الأمم بالأخلاق وحدها، وعلى الأخلاق يؤسس مستقبل الأمة وحياتها الحاضرة، وحظُّ العقل والقلب عن بناء الأمة أو سقوطها قليل جداً، وعندما تذوى أخلاق الأمة تموت مع وجود العقل والقلب، اللذين ربما يكونان متقدِّمَيْن في نواحٍ عملية كثيرة.. فعلى (الأخلاق) وحدها يقوم نظام الجماعة الإنسانية، وهي -أي الأخلاق- أساس الدين[١].

(١) انظر كتاب: السنن النفسية لتطور الأمم ترجمة عادل زعيتر بتصرف، فصل: الأخلاق.

■ وقد ساق (الدكتور لوبوث) عدداً من الأمثلة لبيان تأثير الأخلاق في قيام الدولة وسقوطها، على رأسها حال الأمة الرومانية التي سقطت، وهي أقوى من أسلافها من الناحية العقلية، إلا أنها كانت قد ضعفت من النواحي الأخلاقية.

■ وقد نسى (لو بوث) أن يقدم (النموذج الإسلامي) الذي قضى على الروم وفارس، ولم يكن له من سلاح في النصر إلا إيمانه ورسالته الأخلاقية مع قلة العدد والعدة!!.

أما حالته العقلية (أي التقدم المادي والغنى) فلم يكن يصل إلى مستوى الفرس والروم بالتأكيد بل أقل منهم بكثير!!.

■ ويوضح لنا أحد علماء الهند الأفاضل هو الأستاذ محمد تقيّ الأميني (الأستاذ السابق بجامعة عليكرة) الفرق بين الأخلاق التي يقصدها (غوستاف لوبون) وبين الأخلاق الإسلامية.. فالأخلاق القرآنية التي يريد الإسلام إحداثها في الأمة لا ينحصر أثرها عن نطاق تلك الأمة، بل هي أخلاق تعود فوائدها وتمتد آثارها إلى الإنسانية العامة محققة العدل والرحمة الشاملة لكل الناس، فالعدل فيها مطلق، والكرامة الإنسانية مطلقة، والرحمة كذلك موجهة لكل العاملين!!.

« ٤ »

تواضع القويّ وإنسانيته

■ في حضارتنا الإسلامية يقف الحق فوق القوّة، على العكس من منطق الحضارات المعادية للإسلام، فالقوَّة عندهم فوق الحق!!.

وفي حضارتنا الإسلامية المفترى عليها تقف الجوانب الإنسانية والأخلاقية فوق الجوانب القانونية، فالرحمة والأخلاق فوق العدل، وهما لا يلغيان العدل ولكنهما يجعلانه عدلاً إنسانياً رحيماً، وحتى في ذبح الحيوان يجب إحسان الذبح وتقدير المشاعر الحيوانية تقديراً إنسانياً.

■ والعفوُ لا يكون عفواً إلا عن قوَّة، والزهد لا يكون زهداً إلا عن غنى، والإنسانية لا تكون إلا مع الحق والعدل.. وقد قدَّمت حضارتُنا صوراً لم تستطع أبداً أن تقدمها الحضارات الأخرى، وعلى رأس هذه الصور ما قام به النبيّ محمد عليه الصلاة والسلام عندما دخل مكة المكرمة فاتحاً بعد أن ظلمه وطارده المشركون في مكة، ثم لاحقوه في المدينة المنورة التي هاجر إليها.. بعد هذه العشرين عاماً يقول عليه السلام لهم: (اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى).. وما سئل عليه السلام في رحمة ولا عفو ولا إحسان إلا بادر إليه، وقد تابعه صحابتُه في ذلك، فَقَدَّموا للحضارة الإنسانيّة النموذج الأعلى في الإنسانية والتواضع في لحظات المجْد والقُوَّة!!.

■ وإذا كانت الجوانب الإنسانية مطلوبة في مساحة الحياة كلها، إلا أن معانيها السامية تكون أكثر ألقاً وبروزاً من ساعات الشدّة والخلاف والحروب والصراع... وهذه الجوانب الإنسانية كما تكون مع الأعداء تكون كذلك مع من تحت يدك، ممن تقدر على إيذائهم بكلمة تخرج من فمك، وممن يجب عليهم أن يتواضعوا لك، لا أن تتواضع أنت لهم.. ومع ذلك يقع منك التواضع لهم وأنت الأقوى والآمر والناهي والقائد الكبير المنتصر العظيم.. ولا تتواضع فقط، بل تبالغ في التواضع أحياناً.. وهكذا كان صلاح الدين الأيوبي مع جنوده.. ومع الذين يعيشون معه...

ومما يرويه المؤرخ ابن شداد: أن صلاح الدين.. نزل يوماً على عادته، ومُدَّ الطعام بين يديه، ثم عزم على النهوض، فقيل له:

إنَّ وقْت الصلاة قد قَرُب، فَعَاد إلى الجلوس، وقال: نُصَلِّي ونَنَام. ثم جلس يتحدث حديث مُتَضَجِّر، وقد أُخْلِيَ المكانُ إلا ممَّن لزم، فَتَقَدَّم إليه مملوك كبير محترم عنده، وَعَرَض عليه شكوى لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجران، أَخِّرْها ساعة، فلم يَفْعَل، وَقَدَّم الشكوى إلى قريب من وجهه الكريم بيده (!!) وَفَتَحَها بحيث يقرأُها، فوقف صلاح الدين الاسم المكتوب في رأسها فَعَرفَه، فقال: رجل مستحقّ، فقال المملوك: إذَنْ يوقِّع مولاي له، فقال صلاح الدين: ليست الدواة حاضرةً الآن. (وكان -رحمه الله- جالساً في باب الخيمة، ولا يستطيع أحد الدخول إليها، والدواةُ في صدرها والخيمة كبيرة).

فقال له المملوك: هذه الدواة في صدر الخيمة. (وليس لهذا معنى إلا أمر المملوك لصلاح الدين بإحضار الدواة لا غير) فالْتَفَتَ صلاح الدين-رحمه الله- فَرأَىَ الدُّواة، فقال: والله لَقَدَ صَدَق. ثم اعتمد على

يده اليُسْرى، وَمَدَّ يَدَهُ اليُمنى فَأَحْضَرهَا، ووقَّع له على الشكوى بالتوقيع المناسب: (فانْظُر إلى هذا التواضع والحلم من صلاح الدين في مواجهة الأسلوب الخشن للملوك) لدرجة جعلت المؤرخ ابن شداد يعلق على هذه الواقعة بقوله: (لقد قال الله تعالى في حقّ نبيّه صلى الله عليه وسلم:

«وإنّك لعلى خلق عظيم» وما أرى مولاي صلاح الدين إلا قد شاركه في هذا الخلق) لكن صلاح الدين يعلق عليها بقوله: (ماضرَّنَا شيء، قَضَيْنا حاجته، وحصل الثواب» (!!).

ويعلق ابن شداد على هذا الموقف قائلاً: «لو وَقَعَتْ هذه الواقِعةُ لآحاد الناس، وأفرادهم لقَامَ وقَعَدَ، ومَن الذي يقْدر أن يخاطب سلطانا، هو تحت حكمه بمثل ذلك؟ وهذا غاية الإحسان والحلم، والله لا يضيع أجر المحسنين».

ويقول ابن شداد أيضاً: «ولقد كانت عباءته تداس عند التزاحم عليه، لعرض الطلبات والشكاوى، وهو لا يتأثَّر لذلك.

ولقد نفرت يوماً بغْلتي (أي بغلة ابن شداد) من الجمال، وأنا راكب في خدمته، فَزَحَمْتُ وركه حتى آلمتهُ، وهو يبْتسم -رحمه الله تعالى-.!!

ولقد دخلت بين يديه في يوم ريحٍ مطير إلى القدس الشريف، وهو كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان عليه، وهو يبتسم، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك، فما تركني.

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع، ويلقى ذلك بالبشْر والقبول».

■ لقد قدمت حضارتنا أسمى صفحات السموّ الإنساني، والتواضع والحلم والكرم والأخلاقيات النبيلة عامة..

وهي لم تقدمها كلاماً أو شعارات تدافع بها عن نفسها وعن أبنائها في ساعات الضعف والتشرذم.. وإنما قدمتها في ساعات القوة والمجد.. يوم كانت -بحق- خير أمة أخرجت للناس!!.

ولسوف تعود بإذن الله!!.

«٥»

التسامح والزهد في الانتقام

الحروب في الإسلام استثناء وشذوذ عن القاعدة، ولهذا لابد أن تخضع لأكثر الآداب، وتكون في أضيق الحدود، ومن المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قبل صلح الحديبية على ما فيه من شروط مجحفة تلافياً للحرب، كما أنه دخل مكة فاتحاً بعفو شامل عن الذين سعوا لقتله وشنوا عليه الحروب وعذبوا أصحابه أشد التعذيب مدة ثلاثة عشر عاماً في مكة، ثم في المدينة المنورة.

وتدلنا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم على عظيم عفوه وتسامحه وزهده في الانتقام، سواء في السلم أو الحرب. وكانت هذه الأخلاق النبوية العظيمة روحاً انسابت في قلوب أتباعه ونفوسهم، في حربهم وسلمهم على السواء، فمع أن الخلافات أو الحروب مظنة اللاإنسانية والسلوكيات المدمرة اللاأخلاقية، إلا أن سمو الإسلام المتجسد في سلوكيات الرسول وصحابته قد قدم للبشرية نموذجاً جديداً يفتح أمام الإنسانية آفاقاً رائعة للتفاهم الإنساني والسمو الأخلاقي!!.

وقد تجلّت الروح الإنسانية في الإسلام في الجندي والمقاتل المسلم، متمثلة في التزامه بشرطين:

أولهما: التزامه بالتحصن بالنزعة الإنسانية الأخلاقية المشبعة بالنية الحسنة التي تجعل جهاده للرغبة في الدفاع عن الدين والحق، وليس للبحث عن الغنائم، أو لمجرد القتل والانتقام. وثانيهما: التزامه بأن

يطبق أثناء القتال صيغتي الجهاد اللتين يأمر بهما الدين: (الجهاد الأصغر) الذي يجعله على استعداد للتضحية بنفسه في سبيل القضية والحقيقة، و(الجهاد الأكبر) الباطني الذي يلزمه بكظم غيظه وكبت غرائزه ومقاتلة عدوه بعدل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فهذه الآية تحدد وتختصر التشريع الإسلامي الخاص بالقتال برمته. فليس بوسع قائد الجيش ولا الجندي على حدته أن يتجاهلا القواعد الإنسانية التي فرضها التنزيل. مثل تحديد العدو، وتعيين الشكليات التي تسبق بدء المعركة، وتقرير المعاملة الواجب اتباعها نحو المغلوبين، مقاتلين كانوا أو مدنيين، وتنظيم قسمة غنائم الحرب.

وكذلك حظر أعمال التعذيب التي لا طائل تحتها، وتحريم الإفراط والتجاوز، وحماية الأعداء العزل وغير المحاربين، والمحافظة على الأموال والممتلكات.

وهكذا- سلماً أو حرباً، وفاقاً أو اتفاقاً، يضع الإسلام قوانين عادلة رحيمة، مع الأعداء، بدون تدمير أو ظلم أو إبادة أو انتقام.. فالقرآن يهدي للتي هي أقوم.. والرسول ابتعث رحمة للعالم كله مسلمة وغير مسلمة.

أما أعداؤنا في القديم والحديث.. في حروبهم الصليبية القديمة، وفي استعبادهم لنا باسم الاستعمار الحديث خلال القرون الثلاثة الأخيرة.. وأخيراً تحت شعار العولمة.. فليس عندهم لنا إلا مخططات التدمير ومشروعات التجويع والافقار!!.

«٦»

الحرية الإنسانية بين حضارتنا وحضارتهم

كان الرق ظاهرة عالمية فرضت. نفسها على واقع المسلمين يوم ظهر الإسلام في الأرض... وما كان ممكناً عقلياً أو إنسانياً- أن يترك الإسلام أبناءه يسترقون في الحروب، ولا يعامل الأعداء بالمثل...

لكن الإسلام -مع ذلك- وضع مشروعاً هو أفضل المشروعات للقضاء على ظاهرة الرق والعبودية، وبدأ فوراً بالارتفاع بالعبيد في الحقوق الإنسانية: الكرامة الآدمية- إلى مستوى الأحرار لدرجة أن هؤلاء العبيد ظلوا يصعدون بجهادهم وتفوقهم الحربي إلى أن أصبحوا رؤساء دول تنسب إليهم، كدولة المماليك في الشام ومصر ودولة المماليك في الهند..

فهل وقع مثل هذا في صفحة الحضارة الأورو أمركية؟

أجل: لقد كان الإسلام أسبق وأزكى من كل النظم والحضارات حيث قرَّر حق المساواة الإنسانية بين البشر وبين الأحرار والعبيد. إن الناس في الإسلام سواسية ولا تفاضل بينهم.. فكلهم لآدم وآدم من تراب، ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة.

والغنى والفقير والعبد والحرّ إلا بالعمل الصالح والكفاءات الممتازة وبما يقدمه كل فرد لربه، ولإخوانه ولوطنه.

لقد قضى الإسلام على النزعات القبلية والعصبية الجاهلية، فلا تفرقة بين الطبقات، ولا بين العبيد والأحرار... فكان الرسول صلى الله صلى الله عليه وسلم يقرب إليه كثيراً من العبيد، ويقدمهم على بعض الصحابة الأحرار، كما كان يرسلهم قادة على الجيوش التي تضم بين صفوفهم خيرة الصحابة دون تفرقة على أساس الحسب أو النسب.

يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع: «أيها الناس إن ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى.. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.. فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

ويروى أن أبا ذر الغفاري تناقش مرة في حضرة النبي مع عبد زنجي فاحتد أبو ذر على العبد وقال له: يا ابن السوداء، فغضب الرسول-عليه الصلاة والسلام- وقال: «طَفَّ الصاع، طَفَّ الصاع (أي قد زاد الأمر عن حدّه) ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح» فحزن أبو ذر ووضع خده على الأرض، وقال للعبد: «قم فطأ على خدي». فليس في الإسلام إنسان أكرم من آخر بفضل حسبه ونسبه، بل الكل سواسية، ولا تفاضل إلا بالعمل الصالح فقط.

وهذا من الناحية الإنسانية البحتة..

أما أمام قانون الإسلام - فالمساواة قائمة بين الأحرار والعبيد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ (البقرة: ١٧٨).

وقال أيضاً: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(المائدة: ٤٥).

وإذا قارنا هذا بما فعله الأوربيون والأمريكان مع الأفارقة الأحرار الذين اختطفوا من إفريقيا السوداء، وكيف عوملوا على أنهم عبيد- فور اختطافهم- ثم تعرضوا للجوع والقسوة، وألقى كثير منهم في البحر وهم أحياء، نتيجة الأمراض وصور الضعف التي لحقت هم..

ولو قارنّا قيم الإسلام هذه-أيضاً- بما فعلته الطوائف الزاحفة على أمريكا من أوربا مع الهنود الحمر (وهم أصل أمريكا)، وكيف قتلت منهم نحو عشرين مليوناً... كما قتلت من الأفارقة المخطوفين نحو عشرة ملايين..

لو قمنا بهذه المقارنة، وتذكرنا صور الإبادة الأخرى.

لعرفنا قيمة ديننا الإسلامي وحضارتنا الإسلامية.. دين التسامح وحضارة الرحمة لكل العالمين، وصدق الله في كتابه الكريم:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧).

«٧»

دين إنساني يأمر بالترويح وحب الحياة

■ لم تعرف حضارتنا المنبثقة من ديننا التعصب والتَّزمت وبغض الحياة، وكل ما ورد في هذا السبيل فإنما يُقصد به تحقيق الوسطية حتى لا تصبح الحياة معبوداً من دون الله وغاية تحول دون التفكير في الموت والآخرة.

وإنما قام منهج الإسلام وحضارته على تعمير الحياة وتحقيق التوازن بين الجوانب النفسية والجسدية والروحية والعقلية (فأعْطِ كلَّ ذي حق حقه) كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته وحياة أصحابه هي النموذج التطبيقي لهذا المنهج، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ساعةً وساعة» ويقول صلى الله عليه وسلم: «الهوا والعبوا فإنني أكره أن أرى في دينكم غلْظة» (رواه البيهقي).

وقد علَّق ابن حجر الهيثمي على ذلك بقوله: «ذلك دليل لطلب ترويح النفس إذا سئمت، وجلائها إذا صدئت باللهو واللعب المباح.

وقول علي رضي الله عنه: «روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا كره عمى» ولابن عباس تفسير عملي لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن خلال ممارسته التعليم اكتشف هذه الظاهرة النفسية فقال في وصفها وعلاجها: «أحمضوا -أي ميلوا إلى المفاكهة والأخذ في مُلَح الكلام والخطابات- وهاتوا من أشعاركم فإن النفس تملّ كما تملّ الأبدان».

■ وهذه الظاهرة النفسية السلوكية، وإن كانت ظاهرةً بشرية فطر الله الناس عليها، ولكن مصادرنا الشرعية من الكتاب والسنة قد وصفتها وأصَّلتها وقعدت لها القواعد، وهذه العملية لم يؤصل لها الغربيون إلا في نهاية القرن التاسع عشر مع ظهور العلوم النفسية والاجتماعية، ووضعت نظريات اللعب وأهميتها في تعديل سلوك الإنسان ولكن بحسب تصورهم المادي الوضعي..

❖❖ ❖❖ ❖❖

■ وكانت هناك بعض الألعاب الجادة مثل: الرماية، والسباحة، واللعب بالحراب، والتسابق في الركض، والمصارعة، واللعب بالكرة والصولجان والفروسية وكانت هناك المسابقات الفكرية والتناشد بالشعر والإنشاد المغنى في بعض المناسبات؛ لأن ديننا فيه فسحة. والترويح جزءٌ من بناء الإسلام الشامل لجميع جوانب الحياة؛ ليكون بناء الإنسان سوياً متكاملاً يُلبي احتياجاته الروحية والنفسية والفكرية والجسدية من خلال هذا المنهج الرباني. فهل رأيتم ديناً وحضارة على هذا المستوى من تقدير الحياة والإنسان؟!!.

«٨»

دور الضيافة مظهر للطبيعة الإنسانية الإسلامية

■ من خصائص حضارتنا الإسلامية اهتمامها بالتكافل الاجتماعي الإنساني للمسلمين وغير المسلمين مادياً ومعنوياً . فليس بالمادة وحدها يقوم الإنسان.. وعندما أقام الرسول عليه السلام دولة الإسلام في المدينة أقام في حمى المسجد النبوي داراً للضيافة للرجال وأخرى للنساء، وكانت تُعرف بالصفّة، وهي خيام تُضرب في المسجد لاستقبال ضيوف الدولة، وبخاصة الوفود التي كانت تقدم لإعلان إسلامها، أو محاورة النبي صلى الله عليه وسلم حول قضايا الإسلام ونظمه، والحقوق والواجبات التي تتعلق بمن يعلن إسلامه. وهذه الخيام الخاصة بالضيافة غير (الصفة) الخاصة بأهل الصفة الثابتين.

■ وكانت هذه الخيام تضرب عندما تكون الصفة -وهي دار الضيافة الإنسانية الثابتة في المسجد- مشغولة بأهل الصفة نزلائها الدائمين، أو بضيوف آخرين حلّوا فيها.

■ وهذه الخيام (الصفّة) تُمثل -على بساطتها- صورة عملية للروح الإسلامية في التكافل الاجتماعي المادي والمعنوي.. فهي دار ضيافة، وهي في داخل المسجد أو في حماه.. وهي مقدمة تمهيدية لنوع من المؤسسات الاجتماعية (الإنسانية) تفردت به حضارتنا وسبقت إليه.

■ وهذا النوع من المؤسسات الاجتماعية، منها ما كان ينشأ تبرعاً من الأفراد ابتداءً، أو أن يتبرع بعض المحسنين ببيوت تجعل دوراً للضيافة على سبيل الدوام والاستمرار، إسهاماً منهم في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية.

وكان هناك نوع آخر من دور الضيافة وهو مؤقت بحسب الظروف، وذلك عندما يكون هناك زخم من الضيوف، كما حصل في عام الوفود القادمين إلى المدينة حيث امتلأت الأماكن الدائمة، فاستخدمت دور بعض الصحابة من الرجال والنساء الواسعة مكاناً لاستقبال الضيوف.. كما يقول الباحث العراقي الدكتور ليث جاسم في رصده لظاهرة المؤسسات الاجتماعية في حضارتنا الإسلامية.. وكما يضيف الباحث أيضاً قوله: لقد كانت القاعدة في الظروف الطارئة: أنه إذا جاع المسلمون فلا مال لأحد. أي أن الدولة لها حقّ الأخذ من أموال الأغنياء بالمعروف وصرفها في أوجهها الشرعية من خلال رقابة الأمة، ومن خلال المسؤولية التضامنية بين الدولة والأمة.

■ ولذلك عندما وردت وفود القبائل من أنجاد الجزيرة كافة، وكانت الدولة في بدايات بنائها المؤسس، تجلت لنا صورة عملية ناصعة للتضامن بين الأمة والدولة تعكس لنا ذلك، فنجد أن النبي صلى الله عليه وسلم (وهو رئيس الدولة) كان يُنزل ضيوف الدولة في (بيوت الصحابة) ممن تتسع داره لذلك، أو لصلة رحم وقرابة بين الوفد وصاحب البيت، أو لغرض دعوى أو لغير ذلك.

«٩»

أصول تاريخية لموائد الرحمن في رمضان

■ لا نستطيع أن ننكر أن الدولة الطولونية التي أسسها أحمد بن طولون، في مصر، وامتدَّ بها إلى حدود الشام، مستغلاً ضعف الخلافة العباسية في مستهل عصرها العبّاس الثاني، الذي يبدأ مسيرته مع منتصف القرن الثالث الهجري تقريباً... (٣٣٤هـ) ويستمرّ حتى يسيطر البويهيون ثم السلاجقة على خلافة بني العباس... لا نستطيع أن ننكر أن هذه الدولة كانت حركة انفصالية تحمل طابع الطموح الشخصي، من ذلك الوالي السابق للعباسين (أحمد بن طولون) الذي استطاع الانفراد بالحكم الوراثي، والاستقلال، مكتفياً في علاقته بالخلافة العباسية على الهدايا والدعاء على المنابر للخليفة، والتظاهر بالطاعة، بينما هو مستقل استقلالاً كبيراً..

وكتعويض عن هذا السلوك حاول ابن طولون -ونجح كثيراً- في تدعيم كيان استقلاله وامتلاك أسباب القوة، وإرضاء الناس في داخل البلاد المصرية ثم الشامية، وبناء قوة عسكرية بحرية وبرّية ليبرِّر أمام دولة الخلافة وجوده واستقلاله، ويظهر أهميته ونجاحه في القيادة، ويضمن التأييد الشعبي الداخلي، والإسلامي العام.. والحق أن ابن طولون ودولته قد نجحت في ذلك إلى حدٍّ كبير..!!.

■ وفي لمحة من لمحات النور، وكقيمة أخلاقية من كتاب الأخلاق الرائع الذي يسجل أروع الصفحات في حضارتنا، يلتقط أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي هذه اللقطة التي نوافقه عليها، لكنها لا تنتقص تقويمنا التاريخي الموضوعي الشمولي لشخصية ابن طولون مؤسس إحدى الدول الانفصالية (المستقلة)!!.

❖❖ ❖❖ ❖❖

■ كان أحمد بن طولون رجل خير، يجمع إلى الحزم والبطولة صفاء النفس ورقة الفؤاد، وإخلاص الضمير، وقد نظر إلى شهر رمضان نظرةً عميقة مخلصة، فرآه حقلاً خصيباً لاستثمار الفضائل وإنماء المكارم، فهو في لبابه مظهر التعاون الإنساني بين الناس، ومجال البر والخير والتراحم والتوادّ، فليس الحرمان به عن الطعام هدفاً مقصوداً لذاته، ولكنه وسيلة قوية إلى تضامن النفوس، وتحابِّ القلوب، وإذْ ذاك أمر ابن طولون بدعوة الأغنياء والحكام من مختلف الأقاليم إلى منزله من أول يوم من رمضان، ثم قَدَّم إليهم موائد الإفطار حافلة آهلة، وجمع إليه حشداً من الفقراء والمستورين!! وما فرغ المفطرون من طعامهم حتى وقف ابن طولون وأعلن أنه دعا الأمراء والحكام لينظروا إلى ما يجب عليهم من السخاء طيلة أيام الشهر، فهم مسؤولون أمامه عن إطعام الفقير وتعهد المسكين، ثم أصدر بذلك قراراً وزَّعه على البلاد المتفرقة في القطر الواسع، وتهدد من لا يمتثل أمره بأشد العقاب والنكال فصار رمضان لعهده من أكرم صورة وأنبلها، وأصبح على يده مثابة خير ومورد إحسان، حتى إن بعض الحكام من الأقاليم كان يبعث أعوانه إلى بيوت

الفقراء ليحملوهم بالقوة إلى موائده، ثم يبوئوا بعد الإفطار وقد حملوا في أيديهم ما يطعم الأبْناء والنساء، وقد مرَّ أول يوم من أيام رمضان بعمال البناء من مسجده، فرآهم يشتغلون حتى يؤذِّن المغرب، فتألم لذلك وقال: متى يتمكن هؤلا الضعفاء من شراء الطعام لأسرهم وإعداده؟ ثم أمر بصرفهم جميعاً حين يؤذن العصر، فكانت سنَّة جديدة يحتذيها من حكم البلاد من بعده، وسطرت له مع غيرها بأحرف من نور، فجزاه الله، وجزى أستاذنا الدكتور الأديب محمد رجب البيومي- خير الجزاء..!!.

-لكن الأمر- مع كل ذلك- يحتاج إلى مزيد إضافة وتوضيح..

■ فإن هذه المواقف الرمضانية الكريمة من (أحمد بن طولون)- وإنْ بقيت سنَّة حميدة من بعده بأشكال مختلفة... قد مرَّت عليها عهود ذبول، وعهود مبالغات يصل بها إلى حدّ الابتداع المنبوذ، كما كان في العهد الفاطمي.. في بعض فتراته الأولى على الأقل، قبل أن تميل كفته إلى الهبوط..

-لكننا -مع ذلك- نعتقد أن ما فعله ابن طولون، كان أصلاً لما يسمّى الآن (بموائد الرحمن في رمضان).. كما أنه يعدّ تطبيقاً عملياً لمعنى من معاني رمضان المقصودة من الشارع الحكيم، وهي التكافل الاجتماعي العام.. ولاسيما في رمضان شهر تجويع الغني ليشعر بمشاعر الفقير، والأخذ بيد الفقير -ولاسيما في العيد- ليقْترب من أخيه الغنيّ..

وهو في الوقت نفسه يقدم صورة إسلامية كريمة لرعاية المسلمين (لابن السبيل).. الذي يمثل باباً من أبواب الزكاة كان المسلمون ينسونه.. بعد أن اختفت (هجرة الضيوف) واختفى (دوَّار العمدة) واختفت دور العوائل الكريمة المسبلة لابن السبيل وغيره.

لقد حفلت حضارتنا بصور كريمة عملية تحقق الكافل الاجتماعي، وقد كانت تمارس حبّاً وعبادة.. وقد قاوم بها مجتمعنا الإسلامي المذاهب المادية والإلحادية القائمة على الصراع الطبقي.. لأن حضارتنا حضارة الأخلاق والحبّ والترحم والتكافل بين الجميع.

«١٠»

الثقة في الله في وقت المحن

■ في ساعات الشدائد تتكشف معادن الرجال...

ففي سنة (١٩٣٠م) كانت الحكومة الفرنسية الحاكمة للجزائر تحتفل بمرور قرن على احتلال الجزائر، ويقول مندوبها: إن الإسلام (ومحمداً) قد ودَّعا الجزائر إلى الأبد!!.

لقد أثار هذا التصريح كل الجزائريين، وربما بكى الكثير منهم، لكن عالماً فاضلاً رفض أن يعلن انهزاميته، وقرر أن يقوم بعمل حضاري إيجابي هادئ لعودة الجزائر إلى الإسلام، وليحرِّك همة الأمة، وليبعث فيها الأمل والانتماء إلى إسلامها وعروبتها..!!.

■ ولد الإمام ابن باديس (الشيخ الرئيس) سنة ١٨٨٩م في مدينة قسنطينة- أكبر مدن الشرق الجزائري، وأبدع مدن الجزائر على الإطلاق من حيث الموقع الطبيعي، وأشهرها من حيث احتضانها القديم للثقافة الإسلامية وإنجابها لكثير من قادة الفكر الإسلامي في الجزائر، وكذلك كثرة الآثار الإسلامية بها.

■ لقد كانت قسنطينة- طيلة عهد الاستعمار الفرنسي بالذات- طليعة مدن الجزائر كفاحاً في سبيل الثقافة الإسلامية والعربية..

وفي قسنطينة هذه نشأ الشيخ عبد الحميد بن باديس، وترعرع، وتلقى علومه، ثم تخرَّج من الزيتونة عام ١٩١٢م (أعادها الله لمجدها الإسلامي) ولم يلبث أن قام بالحجّ إلى بيت الله الحرام شأنه شأن الأمير عبد القادر- حيث استغل هذه الرحلة الدينية فطاف بالمشرق والمغرب، وأتيح له أن يعرف من أمراض المسلمين الشيء الكبير، فعاد إلى الجزائر عازماً على الإصلاح وفق منهج إسلامي تكونت أبعاده في ذهنه من مجموعةٍ من المؤثرات المهمشة، صدر بعضها من الواقع، وصدر بعضها عن الثقافة التي تشبع بها الشيخ، وصدر بعضها عن الروح الإسلامية الجديدة التي أشاعها في سماء العالم الإسلامي الإمام محمد بن عبد الوهاب، والسيد جمال الدين الأفغاني، وتلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، خاصةً وأن الشيخ محمد عبده قد زار الجزائر سنة ١٩٠٣م وأصبح له تأثير كبير في نفوس المثقفين والوطنيين الجزائريين، على السواء.

■ وعلى امتداد ما يزيد على ربع قرن من الزمان من حياة الشيخ التي لا تزيد عن واحد وخمسين عاماً كان الشيخ ابن بادريس- رحمه الله- يقضي بياض نهاره ومعظم ليله في (الجامع الأخضر) أو (سيدي قهوش) أو (سيدي بومعزة) أو (مدرسة التربية والتعليم) بقسنطينة يُعلِّم ويحاضر ويفسِّر القرآن ويغرس القيم الإسلامية بكل الطرق المستوحاة من منهج القرآن في التربية.. لقد آمن الشيخ بشيء عظيم.. لقد آمن بأن مستقبل الجزائر الإسلامي يتوقف على تكوين قيادات شبابية تتصهر في بوتقة الإسلام، ويتاح لها أن تتّصل بالإسلام من خلال منبعه الثَّر الصافي (القرآن الكريم)، ولم يقف الشيخ ابن باديس عند حدود المحاضرات والدروس في قسنطينة، وإنما كان دائم التجوال والانخراط في كل التجمعات التي يستطيع من خلالها أن يغرس القيم

التي يؤمن بها.. وتحقيقاً لأكبر أرضية يمكن أن تصل إليها هذه القيم فقد شجَّع الشيخ الصحافة العربية والإسلامية التي كانت تجد كل عنت من السياسة الفرنسية وعملائها.. ومن هنا فقد قام الشيخ نفسه بإصدار مجلة (الشهاب) وجريدة (التقدم) كما ساعد في تحرير جريدة صديقه الشيخ البشير الإبراهيمي (البصائر) ومن مجلات (السنَّة) و(الشريعة)، و(الصراط)، وجريدة (المرصاد).. وغير ذلك من المجلات والجرائد التي تسير مع طريق الشيخ وطريق جمعية العلماء المسلمين.

■ لقد كان الشيخ الرئيس يؤمن بتكوين (الفرد) إيماناً مطلقاًن ويرى أن (الفرد) أساس المجتمع الصالح، ومن هنا فقد عكف على الدروس والمحاضرات وعمل على الاتصال المباشر بتلامذته، وتكوين علاقات فردية يستشف من خلالها روح الفرد ويتمكن من التأثير فيه.

■ وقد قَدَّم دروساً قرآنية انتهت به إلى تقديم تفسير كامل للقرآن احتفلت الجزائر كلها بيوم الانتهاء منه.... ومن خلال التفسير قام بتربية الأمة، وبثّ روح العمل والإخلاص، والمقاومة للاحتلال الأجنبي (عدو العروبة والإسلام)...

■ وقد قدَّم الشيخ ابن باديس (باعث النهضة الإسلامية في الجزائر) درساً عملياً في رفض اليأس مهما كان جبروت أعداء الله، فالله أكبر من كل ا لظالمين، ونحن- بجهودنا المخلصة ووسائلنا المحدودة، واللجوء إلى فقه كتاب الله في تربية الأمة- نستطيع أن ننقذ الأمة من الظالمين في كل ساعات الشدائد... فالله أكبر من كل قوى الأرض، وهو غالب على أمره، وعليه- وحده فليتوكل المتوكلون، بعد الأخذ بالأسباب، والثقة المطلقة بربِّ الأسباب الذي يقول للشيء كن فيكون!!.

«١١»

الصبرْ أمام اختبارات الله

■ كان عروة بن الزبير (شقيق عبد الله بن الزبير) إماماً جليلاً زاهداً في مناصب الدنيا وجاهها، حريصاً على الفقه في دين الله، وتعليم الناس، والإحسان إلى الفقراء... وكان مشهوراً باستغراقه في الصلاة استغراقاً يخرجه عن الدنيا فكأنه ليس من أهلها، وكان آيةً في الصبر والتقوى والرضا بقضاء الله وقدره..

■ وقد اعتكف في حلقات المسجد النبوي بالمدينة والمسجد الحرام بمكة أيام الحج ليدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة مع نفرٍ من ذوي العلم بطيبة كانوا حملة المشاعل في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضربوا في ميادين النظر بأوفر السهام، وقد عرفوا في تاريخ الفقه الإسلامي بفقهاء المدينة السبعة، وحسْبك أن يكون منهم: سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعبيد الله بن عتبة ابن مسعود، وسليمان بن يسار، وسالم بن عبد الله بن عمر، وخارجة بن زيد بن ثابت، وعروة بن الزبير. رضي الله عن الجميع.

■ وقد عرف خلفاء بني أمية إخلاص عروة وزهده وابتعاده عن السياسة، وبالتالي فلم يأخذوه بخلاف أخيه عبد الله معهم، وعاملوه أحسن معاملة، وكانوا يستقبلونه أحسن استقبال، ويقبلون نصحه لهم، بل يستشيرونه في بعض الأمور..!!.

■ وقد مرض عروة مرضاً أوجب قطع أحد قدميه، فما جزع ولا وهن لما أصابه في سبيل الله، بل إنه عندما علم بالأمر تقبَّله برضاً، دون أن يظهر منه -حتى في وقت المفاجأة بالخبر- أيُّ تغيّر في صوته أو في وجهه أو على لسانه، بل بدا في غاية الرضا بقضاء الله وقدره..

■ ولما دُعِي الجزار ليقطع قدمه قال له: نَسْقيك الخمر حتى لا تجد لها ألماً. فقال: لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافيته.. قالوا: فنسقيك المرقد (نوع من المهدئات) قال: ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه.

قال: ودخل عليه قوم أنكرهم، فقال: ما هؤلاء! قالوا: يمسكونك، فإنَّ الألم ربما عَزَّ معه الصبر، قال: أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي... فقطعت كعبه بالسكين، حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار فقطعت وهو يهلِّل ويكبّر، ثم إنه أُغلي له الزيت من مفارق الحديد، فحسم به، فغشي عليه، وأفاق وهو يمسح العرق عن وجهه، ولّما رأى القدَم بأيديهم دعا بها، فَقَلَّبها في يده ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيتُ بكِ إلى حرام، أو قال: إلى معصية قط...!!.

وكان هذا هو كل ما صدر منه في هذا الموقف العصيب!!.

■ وكان من قدر الله وحكمته ألا يقف الأمر بعروة عند هذا الحدّ، بل شاءت حكمة الله أن تظهر عظمة هذا الفقيه الجليل وعميق إيمانه، وقوة جلده وتحمله، وضربه المثل في الصبر والاحتساب، ففي هذه الظروف نفسها تشاء إرادة الله أن يقع أمر محزن آخر يؤدي إلى كارثة

أخرى.. فقد دخل ولده (محمد) اصطبل الخيول من دار الخلافة لينهض بغرسٍ له، فصادف خيلاً هائجاً يعترضه في عَدوٍ مجنون سرعان ما ألقاه على وجهه، فأسلم الروح، والأب الحزين لم يهدأ بعد من ألم القطع ليصدم بنعي ولده الحبيب..؟.

ولم يملك غير الدموع، فالاستغفار والاسترجاع.. وقد أحضر له الوليد بن عبد الملك من يواسيه من أرباب النوائب، فاستمع من إصغاء، ثم رفع يديه إلى السماء ليقول لله في ضراعة: «اللهم لئن أخَذْتَ لقد أَبْقيت، ولئن ابتَليتَ لطالما عافيتَ.. فلك الحمد في الأولى والآخرة»!!

■ ولم يترك وِرْده إلا ليلةً واحدة، ثم استأنفه من الليلة المقبلة؛ إذْ كان يصلِّي الليل برُبع القرآن، ومنعه هيجان الألم أن يقرأ بعد القطع...

ومن الذي يطيقه؟.. لكن ذلك كان -كما ذكرنا- لليلة واحدة، فمن يستطيع أن يفْعل هذا، وأن يصل إلى هذه الدرجة من اليقين والإيمان!!.

وقد واساه كثيرون، وقدَّموا له أفضل المواعظ، وكان يستمع إليهم، ويقبل مواعظهم مع أنه أكثر علماً منهم، وأقوى إيماناً... لكنه أدب الإسلام الذي يأمر بالتواضع وخفض الجناح، وكان من أحسن ما سجله الرواة من ذلك ما يُنسب إلى إبراهيم بن محمد بن طلحة حين قال له من؟؟: «والله يا عروة ما بك حاجةٌ إلى المشي، ولا أرب في السعي، وقد تَقَدَّمك عضوٌ من أعضائك وابن من أبنائك إلى الجنّة، والكلّ يتبع البعض إن شاء الله تعالى.. وقد أَبْقَى الله لنا من علمك ورأيك ما كنَّا إليه فقراء، وعن غيره أغنياء، والله ولي ثوابك، والضمين بحسابك».

فكان لهذه الكلمات الطيبات وأمثالها وقعها الطيب على عروة بن الزبير.. الصحابي الجليل.. إمام الصابرين المحتسبين في حضارتنا الإسلامية، بعد خاتم المرسلين وإمام المتقين عليه الصلاة والسلام!!.

«١٢»

الإيثار والكرم ولو بالقليل

■ نهى الإسلام عن التبذير والإسراف، كما نهى عن البخل والتقتير، وجعل المبذرين من إخوان الشياطين، وعلَّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ بالله من البخل والعجز وغلبة الدين!!.

ولكن في أحيان كثيرة، ومن أجل غايات سامية، يلجأ الإنسان إلى الاقتصاد في المعيشة، وإيثار التضحية بالكماليّات من أجل تحقيق غرض كريم، أو من أجل المصلحة العامة. ويعدُّ موقف الأنصار (رضوان الله عليهم) من أسمى المواقف في التاريخ الإنساني كله، حين شاطروا -أو على الأقل- كانوا يشاطرون إخوانهم المهاجرين في أموالهم ودورهم، مؤْثرين على أنفسهم، محبِّين من أعماق قلوبهم من هاجر إليهم..!!.

■ وعندما كان بيت النبوة الكريم يطعم الطعام على حبّه (أي الحاجة إليه) مسكيناً ويتيماً وأسيراً.. كان يُقدّم صورة أخرى من صور السموّ الإنساني والإيثار الكريم..!!.

■ وللأسف، ففي حياتنا المعاصرة كثيرٌ من صور التبْذير تقع في السلوكيات الشخْصيّة، وبعضُها يجمع بين حرمة التبْذير وحرمة الشيء نفسه، كتعاطي الدخان والنارجيلة، فضلاً عن المخدّرات الأخرى، وبالإضافة إلى مأكولات أجنبية ومشروبات لا تُعرف

تفْصيلات مكوِّناتها، بينما لدْينا من أرضِنا ووطننا موادّ حلال، معروفةٌ مكوّناتها، مضمونة في حلها، ومع ذلك يزهد الناس فيها، ويوقعون أنفسهم في الشبهات والمحظورات، فضلاً عن وقوعهم في التبْذير والترف والإسراف!!.

■ ولو فكَّر هؤلاء تفكيراً إسلامياً وعقلياً، لعلموا أنهم يستطيعون أن يصنعوا الكثير لأنفسهم وأولادهم وأمتهم وأوطانهم عندما يتجنبون التبذير والإسراف في السلوكيات الشخصية أو الأفراح!!.

وهذه قصة رجل صالح عرف هذه الحقيقة، وقام بتطبيقها على نفسه، مع أنه كان فقيراً...

■ ولم يدَّخر الرجل من مشروبات حلال أو حرام، ولا من أفراح أو مناسبات، بل إنَّه ادَّخر من قوت نفسه؛ لأنه كان يحلم بأن يبني جامعاً في مكان من أفضل الأماكن بالنسبة لرؤيته ولقومه الذين يريد أن يبني الجامع بينهم...، ويقول المؤرخ والمفكر المعاصر (أورخان محمد علي): إننا لكي نعرف القصة الحقيقية لهذا الجامع وهذاالرجل يجب أن نفتح الصفحة رقم (١١٩) من الجزء الأول من كتاب (جوامع اسطنبول) لكي نقرأ قصة شخص ورع كان يعيش في منطقة (الفاتح) واسمه (خير الدين كججى أفندي).. فقد كان صاحبنا هذا (خير الدين) عندما تتوق نفسه لشراء فاكهة أو لحم أو حلوى كان يقول في نفسه: سأفترض أنني أكلته، ثم يضع ثمن تلك الفاكهة أو اللحم أو الحلوى في صندوق عنده..

ثم مضت الأشهر والسنوات وهو على هذا الحال، يمنع نفسه عن كثير من لذائذ الأكل.. وبالتالي تزداد النقود في صندوقه الكبير شيئاً فشيئاً، حتى استطاع ذات يوم أن يشتري الأرض الصالحة للبناء، ثم يأخذ في بناء المسجد وحده دون طلب معونة من أحد.. ولما كان أهل المكان يعرفون فقر هذا الشخص، فقد فوجئوا بهذه، ولما عرفوا قصته انبهروا بها، وأطلقوا على الجامع الذي تمَّ بناؤه.. اسم (جامع كأنني أكلته)...

■ وما زال الجامع معروفاً بالتركية (جامع صانكى يدم).

أي جامع (افترض أنني أكلت).. دلالة عظيمة على ما يمكن أن يفعله الإنسان إذا تجنَّب التبذير، وحكم نفسه، وضبط سلوكياته واتَّقى الله في المال، وعَرَفَ أنه سيُسأل عن مصدره وصور إنفاقه يوم القيامة..!!.

■ وقد بقي سلوك هذا الرجل الورع الفقير مثلاً يُضرب لما يمكن أن يفعله تجنّب التبذير والإسراف... وقد أشاد المفكر والإمام التركي الكبير (بديع الزمان سعيد النورسيّ) بهذا السلوك، مشيراً إلى الدرس المستفاد منه، مخاطباً كل المسلمين قائلاً لهم:

«كلما نادتكم اللذائذ.. ينبغي الإجابة بـ (كأنني أكلت) فالذي جعل هذا دستوراً له (يقْصِد خير الدين صاحب القصَّة)، كان بوسعه أن يأكل مسجداً سمى باسم:

(كأنني أكلت) فلم يأكله!!.

■ وهو درس في الاقتصاد والزهد وقوة الإرادة وتقوى الله، يجب أن يعيه كل المسلمين.

«١٣»

الارتباط بين القول والعمل

■ كان سعيد بن المسيب تابعياً جليلاً عالماً ورعاً، جمع بين العلم والدين والثراء والزهد والفقه والبعد عن الجاه والمناصب وأصحاب الدنيا.

عاصر سعيد عدداً من خلفاء بني أمية (٤١-١٣٢هـ) على رأسهم عبدالملك بن مروان والوليد بن عبد الملك، وكانت له بعض الآراء والمواقف التي يُبدي فيها استقلاله الكامل ونزاهته في الفقه والفتيا والوعظ.

■ ونظراً لثقة ولاة الأمور في إخلاصه ومكانته وحبّ الناس له تركوه لشأنه، فلم يقع بينه وبين أولى الأمر خلاف كبير، مع أنه كان يرفض أعطياتهم، وقد رفض قبول ثلاثين ألف درهم وهبات أخرى كثيرة أرسلها إليه الخليفة عبد الملك بن مروان ٦٥-٨٦ هـ.

■ وأكبر من هذا كله ذلك الموقف الذي يذكره التاريخ بالمجد والفخر، حين رفض أن يزوِّج ابنته من وليِّ العهد (الوليد بن عبد الملك) لغرْس قيم معينة في نفوس تلامذته الذين كان يربيهم، وكانوا عنده في موضع الأبناء والمريدين، لا يبخل عن فقيرهم، ولا يمنعهم علمه وفضله في ليل أو نهار.

■ وكان (سعيد بن المسيب) -إمام التابعين- يعلم أنه ليس بدروس الوعظ وحدها، ولا بالعلم وحده، يعرف حقيقة الناس، فعلّم دون عمل صالح لا قيمة له، والقدوة بالفعل أهم من كل صور البلاغة بالقول. وعظمة الأنبياء عليهم السلام، وخاتمهم إمام المتقين محمد عليه الصلاة والسلام إنما تتجلى في تحقيقهم (القدوة المثلى) في كل ما يقولون.

والنفاق هو مخالفة القول العمل، والعمل القول والإخلاص والصدق يتأكدان في التطابق بين القول والفعل... هكذا كان سعيد ينصح الناس ويعلمهم.

■ وقد وقف سعيد مرة وقفة من وقفاته تلك.. وأخذ يتحدث إلى الناس ويقول لهم:

أتعرفون أن غضب الله لاحق بكم، ما ذاك إلا لأن سنة نبيه قد ضاعت بينكم، والرحمة قد نزعت من قلوبكم، وتكالبتم على حبّ التفاخر بالأنساب والأموال، وإن أحدكم لو خُيِّر بين أن يتزوج من سلالة النبي أو يزوج لهم أو أن يتزوج من أولياء الأمر وأصحاب الحكم أو يزوج لهم، لغلبه شيطان الدنيا وأضله هواه واختار الثانية، إني لأراكم تؤثرون لبناتكم كل ذي مال ونسب وليس كل ذي علم وأدب، وأراكم تغالون في المهور وتطلبون منها الباهظ، وتؤثرون الكثير منها على القليل، وفي ذلك كما يعلم الله انتقاص لإنسانية بناتكم المؤمنات، حيث تضعونهن موضع السلعة التي يُشتط في طلب ثمنها، وفي ذلك دليل على ضعف إيمانكم ومخالفتكم لأوامر نبينا صلى الله عليه وسلم. (أو كلاماً هذا معناه!!).

واسترسل الشيخ سعيد في حديثه وانخرط في كل أسلاكه..

وذهل الحاضرون من وقع هذا الكلام في نفوسهم..

وانتقلوا بدورهم إلى عالم الروحانية الصافي وطأطؤوا رؤوسهم وبدوا وكأنهم ما أصابوا من الدنيا وما أصابت الدنيا منهم.

■ وقد كان الذين يسمعون هذا الكلام يعرفون مدى صدقه، فهم قد رأوا صاحبه سعيد بن المسيب يرفض زواج ابنته من ولي العهد الوليد ابن عبد الملك، ويعرفون أنه زوجها (لأبي وداعة) تلميذه الفقير الذي ماتت عنه زوجته، ولم يتزوج، فأعطاه سعيد ابنته بمهر قيمته لا تزيد عن درهم وخاتم من حديد!!.

■ لقد حقق سعيد-أمامهم-عملياً- ما كان يروى عنه من مثل قوله:

الله.. الله..!! إن الدنيا حقيرة وهي إلى كل حقير أميل وأحب، وأحقر منها من أخذها بغير حقها وطلبها من غير وجهها ووضعها في غير سبيلها.

أيها الناس: لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلم إلا بالإنكار عليهم في قلوبكم، حتى لا تحبط أعمالكم، يد الله فوق الجميع، فمن رفع نفسه ووضع غيره خفضه الله، الناس تحت كنف الله يجازون بأعمالهم، فإذا أراد الله فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه فبدت للناس عورته، الله... الله..!!.. إياكم وذكر الناس بماليس فيهم ورميهم بمالم يفعلوا..!!.

لقد عاش سعيد إماماً تقياً، ومعلماً يمضي على درب النبوّة، ويقدم للناس المواقف العملية التي تتجسد فيها أخلاق تلامذة رسول الله صلى الله عليه وسلم..

ولقد أثبت سعيد بن المسيب وجيل التابعين الذين عاشوا في عصر بني أمية أنهم استمرار لعصر الصحابة، وأن نهر التقوى والصلاح كان زاخراً، وأن الذين يريدون القول بأن انتقال الأمور إلى بني أمية أَوْقَفَ تيار الشرع والقيم الإسلامية إنما يهرفون بما لا يعرفون، ويركزون على جانب ويهملون المساحة الكبيرة الوضيئة...

وسيبقى في كل عصر، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. دعاةٌ ثابتون عاملون فقهون، ظاهرون على الحق لا يضرهم من خالفهم (!!) ورحم الله سعيد بن المسيب التابعيّ الجليل الذي كانت حياته سلسلة من المواقف الرائعة الخالدة.

«١٤»

الحبّ الروحي: من أيادي الحضارة الإسلامية

■ لم يكونوا على معرفة بالحب العذري الجميل، بل كان الحب عندهم- وللأسف حتى اليوم- هو العلاقة الجنسية، أما حبّ المشاعر والقلوب، وأما السموّ النفسي والروحي فقد كانوا أبعد الناس عنهما.

■ وعندما ظهر الإسلام، وانتقل إلى أوربا عن طريق إسبانيا (الأندلس) وجزر البحر الأبيض المتوسط، وزحفوا علينا يتتلمذون في معاهدنا وجامعاتنا ومكتباتنا، بدؤوا يعرفون الحبّ الشريف العذري بين الرجل والرجل (قبل عصرنا الذي يقر الشذوذ الجنسي ويعتبره حبّاً!!) وبين الرجل والمرأة، وبدؤوا يكذبون ويقولون إنه (حبٌّ أفلاطوني) بينما هو (حب عذري إسلامي)، لكنهم استمروا جحود أيادي الآخرين وأفضالهم!!.

■ كان أبو بكر محمد بن داود الظاهري الأصبهاني المتوفى (٢٩٧هـ) من أوائل من وضعوا قواعد الحب العذري الروحي في كتابه (الزهرة)، وتبعه أبو الفرج الأصبهاني (ت ٣٦٦هـ) في كتابه (الحدائق)، وهكذا كتب (إخوان الصفا) وابن المقفع في الأدبين الكبير والصغير، والجاحظ في الرسالة السابعة من رسائله من العشق والنساء، وأبو إسحاق الحصري في كتابه (المصون). إلاَّ أنَّ أبا محمد عليّ بن أحمد بن حزم القرطبي الأندلسي المتوفى سنة (٤٥٦هـ) قد فاق كل هؤلاء في دقة منهجه وتسلسل أفكاره، وترابط بحثه ورقّة حسه، وبُعد غوصه واتباعه

منهجاً استبطانياً استقرائياً فجاءت رسالته (طوق الحمامة) حافلة النفيسة بالملاحظات الدقيقة، والخبرات الحيّة المعاشة، والأمثلة التاريخية والنماذج البشرية المتنوعة، أو بتعبير آخر جاء ما قدمه ابن حزم في (الطوق) نظرية متكاملة عن الحب العذري العفّ اعتمدت على عناصر البحث النفسي والاجتماعي:

١ فهي تعتمد على التجربة الذاتية المصهورة في بوتقة الضوابط الإسلامية.

٢ وهي تعتمد على ما تراه وتسمعه في الحياة الاجتماعية.

٣ وهي تقدم ذلك كله في صدق وجرأة بلا خوف أو نفاق.

٤ وهي تخرج من كل ذلك بنتائج تعممها على أعراض الحب المختلفة.

٥ وهي في ذلك محاطة بسياج من التصور الإسلامي الذي لا يرى في الحب العفيف إلا لوناً من الجهاد، عاقبته الشهادة والجنة.

■ فحتى الحبّ علمناهم إياه (بمعناه الإنساني الراقي) القائم على قوله تعالى في أوّل سورة النساء: ﴿ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وعلى قوله تعالى في سورة الروم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.. فالقرآن هو الأصل الذي أقام العلاقة الروحية والنفسية بين الرجل والمرأة، ومنه استقى أعلامنا الكبار نظرياتهم في الحبّ الروحيّ والعذري التي علموها للإنسانية ولأوروبا!!.

■ لكنّ الحضارة الأوروبية عجزت عن الوصول إلى القمة الإسلامية الإنسانية وظلت تنتكس حتى وصلت العلاقة بين الرجل والمرأة إلى أحطّ مستوياتها في التاريخين (الإنساني والحيواني) حين أباحت زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، وإقامة (عائلة) على أساس الرغبة الجنسية بين الشخصين بعيداً عن الشريعة والقانون والدين، ومع ذلك يعتبرونها (عائلة)!!!.

■ ألا ليت الحضارة الأوروبية تستطيع أن تبقى في مستوى حضارة الإسلام الإنسانية، أو أن تحاول- على الأقل- الوصول إليها، إنقاذاً للسفينة الإنسانية الموشكة على الغرق!!.

«١٥»

علماء في الدنيا- ملوك في الآخرة!!

■ في بداية سورة الواقعة يعلمنا الله سبحانه أنه ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ فهناك ناس مرتفعون في الدنيا ينخفضون في الآخرة، وهناك منخفضون هنا يكونون في القمة في الآخرة!!.

وقد كان الإمام الشيخ محمد الغزالي يطلق على بعض الصالحين الزاهدين من أمثال الشيخ عبد العزيز بن باز- أنهم من ملوك الآخرة!!.

■ ونقدم -في هذه السطور- بعض ومضات تتصل بهؤلاء الأعلام الذين يستحقون هذا اللقب الكريم.. (!!) فمن الجدير بالذكر أنه لمَّا ظهرت الدولة الإسلامية، بعد انقضاء عصر الراشدين- كان الحكام يتنافسون في تقدير العلماء وتشجيعهم، والفوز بخدمتهم.

■ ومن هؤلاء الحكام الذين اشتهروا بتقدير العلم والعلماء: الخليفة العباسي (المأمون) في بغداد (وسيف الدولة الحمداني) في حلب و(عبدالرحمن الناصر) و (المعتمد بن عبّاد) في الأندلس، وغيرهم كثيرون.

■ وقد كان هؤلاء الحكام، وغيرهم يُولّون العلماء أرفع المناصب في الدولة، وتُساعِدُهم على طلب العلم، والغنى عن الناس، وكانو يستشيرونهم في أمور الدولة، ويأخذون برأيهم، ويصطحبونهم في معاركهم.

■ وقد كان للعلماء من المكانة والهيبة ما أرغم الحكام على الخضوع لهم، فقد حكم العالم الزاهد (العزُّ بن عبد السلام) على المماليك في مصر- أن يبيعوا كل ما يملكون من الذهب قبل أن يفْرضوا الضرائب على الشعب، من أجل معركة (عين جالوت) واستجاب المماليك لرأيه، وانتصر المسلمون في المعركة الخالدة التي أنقذت الإسلام والمسلمين جميعاً، بل والحضارة الإسلامية سنة (٦٥٨هـ) وكانت من هدايا مصر الخالدة للعالم الإسلامي.

■ وكانت البلاد الإسلامية الكبرى تمثل مراكز إشعاع للعلوم، تتنافس في احتضان العلماء، واقتناء الكتب. ومن هذه المراكز العلمية التي اشتهرت: بغداد، والبصرة والكوفة، والقاهرة، والقيروان، وقرطبة وإشبيلية، ودمشق، وفاس من المغرب وبجاية بالجزائر.. وغيرها من العواصم الإسلامية، فضلاً عن المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ومسرى الرسول وأولى القبلتين القدس الشريف، أعادها الله للإسلام.

■ وقد بلغ التنافس العلميّ الكريم بين البلاد الإسلامية أن كانت كل بلد تباهي الأخرى بمن عندها من العلماء والفقهاء والنابغين، فكان المشرق العربي ينافس المغرب، وكانت الأندلس، تنافسهما جميعاً. وقد أَلَّف ابن حزْم الأندلسي (فقيه الأندلس وأديبها العظيم) رسالة ذكر فيها طائفةً: من علماء الأندلس يقيسهم ببعض علماء المشرق وأدبائه، فيقول مثلاً: إن فلاناً عندنا نُباهي به جريراً أو الفرذدق الشاعر، وفلاناً نُباهي به الإمام البخاري المحدث، وفلاناً نسابق به محمد بن يزيد المبرِّد الأديب وهكذا وهكذا..!!.

■ وكان الناس يجلّون العلماء إجلالاً نابعاً من ضمائرهم الإسلامية، وعواطفهم الصادقة التي لا يشوبها خوف أو نفعٌ، وكثيراً ما احتفلوا بهم أكثر من احتفالهم بملوكهم.. وإذا ماتوا بكوا عليهم أكثر من بكائهم على آبائهم وأمهاتهم.. في حدود ما تسمح به الشريعة الإسلامية الغَّراء!!.

■ وممن يعدُّون في حضارتنا من أكبر الزاهدين والعلماء العاملين الإمام الورع (عبد الله بن المبارك) الذي كان من أثرياء عصره ومن زهاد عصره ومن مجاهدي عصره.

وقد رُويت في كرمه وجهاده صورٌ رائعة، وكان يحجّ في ركبه على نفقته موكبه كله الذي يحج فيه. وكان يرعى بيوتاً كثيرة، وكان كثير المرابطة في سبيل الله..!!.

■ وقد حكى المؤرخون أن الخليفة (هارون الرشيد) قدم يزور مدينة الرِّقَّة وقدم في الوقت نفسه عالم خرسان (عبد الله بن المبارك)، فأسرع الناس خلْف العالم، (ابن المبارك) حتى ازدحمت بهم الطرقات، وارتفع الغبار في الجوّ، وتقطَّعت النّعال، ونظرت زوج الخليفة من النافذة، فرأت المنظر، فقالت: (هذا والله الملك لا مُلك هارون الرشيد الذي لا يجمع الناس إلا بالشرطة والأعوان)!!.

■ وما أحب الناس عبد الله بن المبارك هذا الحبّ، ولا خضع المماليك للعز بن عبد السلام هذا الخضوع، إلا لأنهم رأوا علماء يسبق عملهم قولهم، وتسبق في سلوكهم مطالب الآخرة مطالب الدنيا، ويؤثرون ما عنْد الله على ما عنْد الناس.. ولو أن أهل العلم في عصورنا

صانوه لصانهم الله به، ولو عظَّموا تقوى الله لوضع الله تعظيمهم في قلوب الناس.. وقد رأينا هذا بأعينيا فيما وقع عند وفاة الشيخين الجليلين الإمام الكبير محمد الغزالي، والإمام محمد متولي الشعرواي.. فما زال فضل الله موصولاً.. (وإنْ عدتم عدنا).. (وما عنْد الله خير وأبقى).. ورحم الله العلماء العاملين الورعين.. ملوك الآخرة!!.

«١٦»

تفاعل حضاري إيجابي قديم وحديث

■ في مواجهة الغارات والهجمات الحضارية والدينية يسقط في الفتنة الكثيرون، ولكن الأقلية التي اصطفاها الله تواجه التحديات بثبات، وتستحدث للنَّصر الوسائل والآليات المناسبة، وكان محمد فريد وجدي ممن واجهوا الحضارة الأوروبية بنجاح كبير، وعاش طيلة حياته (١٨٧٨ -١٩٥٤م) يردّ الغارات عن الإسلام وحضارته، ويعمل عقله في تقديم البدائل والأخذ بأسباب التقدم.

■ وكان المصلح المجدُّ (محمد فريد وجدي) رحمه الله تعالى - متعدد الملكات والمواهب، وليس أدّل على ذلك من توافره على كتابة (دائرة معاوف) ومن (تفسيره القرآن الكريم).. والقيام بهاتين المهّمتين يتطلب شمولاً في الثقافة، والإحاطة بكل فرع من فروع المعرفة على اختلاف- بالطبع- في هذا الشمول وتلك الإحاطة، وليس يشبه (فريد وجدي) إلا الأسلاف البواسل الذين أنجبتْهم العقيدة الإسلامية من نظائر (السيوطي) و(الغزالي) و(ابن حزم) وابن تيمية) و(ابن القيم) وغيرهم «ممن كتبوا في كل شيء، وبرعوا في كل شيء.. وليس يشبه (وجدي) حديثاً إلا الأستاذ (عباس العقاد)، ونكاد نجزم بأنها نزعة طموحية أخذها العقَّاد عنه، بوعي أو بلا وعي، إبّان الفترة القصيرة التي قضاها معه محرراً في مجلته (الدستور).. لقد كتب فريد في كل

شيء.. كتب فريد وجدي في العلم الطبيعي، وكتابه الشهير (على أطلال المذهب المادي) آيةٌ ناصعة في ذلك، وكتب في الفلسفة، ومباحثه عن (الإنسان والكون) التي زخر بها كتابه (الإسلام في عصر العلم) دليلٌ على صدق ما نقول..

وكتب محمد فريد وجدي في الأدب العام المقالة والقصة والقصيدة لينافس ما يكتب عن الإسلام والعربية، وليعدَّ جيلاً مسلماً مؤمناً بدينه وتراثه وحضارته ورسالته نحو العالم!!.

■ وكان موقف الأستاذ (وجدي) من نشر الإسلام في العالم عن طريق ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية من أعظم خدماته للإسلام والمسلمين..!!.

لقد كانت فكرة ترجمة (معاني القرآن) التي حمل لواءها ابتداء الشيخ (محمد مصطفى المراغي) شيخ الأزهر منذ عام ١٩٢٩م من وسائل المخلصين للإسلام في مقاومة الغزو الثقافي والتغريب. وقد جرت معارك طويلة سنة ١٩٣٢، ١٩٣٥م ثم سنة ١٩٣٦م حول هذا الموضوع: أيجوز ترجمة المعاني أم لا؟ وقد دعا محمد فريد وجْدي إلى ترجمة معاني القرآن ترجمة صحيحة؛ حتى ينجو من تحريف المحرِّفين، وقال: إن هذا العمل خيرٌ من أن يُتْرك القرآن للمترجمين من متعصِّبة الأمم يحرِّفونه ويشوِّهون معانيه، ويعيب (فريد وجدي) إصرار بعض العلماء على حبْس الإسلام في دائرة العربية التي لا يحسن فهمها غَيْر أهلها وتجريده من الأسلحة العالمية (وهي اللغات الحية) التي يستطيع الناس فهم حقائق الإسلام من خلالها.

ويقول فريد وجدي للمعارضين لترجمة معاني القرآن: إن وضْعَ القيود غيْر المعقولة من مسألة نقله يقْضي علينا بهزيمة منكرة تقع نتائجها علينا وعلى أبنائنا وأحفادنا قروناً طويلة.

■ ومعنى ذلك منْع القرآن من الجولان من الدورة الفكرية العالمية مع غيره من كتب الأديان وأسفار المذاهب.. إنَّ تعطل القرآن عن الترجمة والقيام به في معترك الأفهام إلى اليوم قضى عليه بألا يكسب أنصاراً من الأمم القريبة، فصار قاصراً على الأمم الشرقية التي رضيت أن يكون حظُّها من دينها كحظّ الببغاء!!.

■ وقد أصدر فريد وجدي كتاباً بعنوان (الأدلة العلمية على جواز ترجمة القرآن) يقصد ترجمة المعنى بسط فيه كل ما يمكن قوله في هذه القضيِّة، مستهشداً بآراء العلماء والمفكرين الإسلاميين. وقد أفحم بمقالاته التي نشرها في مجلة الأزهر وجريدة الأهرام وغيرها المعارضين لترجمة المعاني القرآنية من أمثال الشيخ محمد سليمان والشيخ محمد مصطفى الشاطر (القاضي بمحكمة شبين الكوم الشرعية). وكان مما قاله في هذا الصدد:

«هل الورع أن يقف المسلمون جامدين مكتوفي الأيدي أمام أمثال هذه الحركات الفكرية التي تجتاح العالم اليوم، ليتوهَّم العالم كله أننا لا نملك سلاحاً نكافح به في ميدان هذا الجهاد الفكريّ في هذا العصر الحديث»؟!!

■ وفي النهاية استشهد فريد وجدي بأقوال بعض المفكرين الذين اطَّلعوا على تراجم للقرآن من مثل (جوته) من قوله: «لو كان هذا الإسلام فنحن إذن فيه أي أن الإسلام دين الفطرة، وكل سليم الفطرة يمكن أن يصل إلى الإسلام بسهولة!!.

ومن مثل قول (برناردشو) بعد أن اطلع على ترجمة لمعاني القرآن أيضاً:

«إن الديانة الإسلامية كفيلة بتضميد جراح الإنسانية، وإن العالم المتمدن قد بدأ يفهمها على حقيقتها. ولا أظن أنه يمضي عليه قرنان حتى يكون قد أسلم».. ثم يعلق فريد وجدي على هذه الأقوال بقوله:

ليت شعري لو لم يكن الأوروبيون قد اطّلعوا على ترجمات لمعاني القرآن، أكانت تصدر عنهم تلك التصريحات الخالدة؟.

إن الذين يقفون في طريق ترجمة معاني القرآن يريدون عن عمد أو غير عمد جَعْلَ الرسالة المحمدية رسالةً محلية وطعنها بذلك في الصميم وإيقاف انتشارها في العالم!!.

■ وكانت من أطيب ثمار (وجدي) في هذا السبيل أن ترجمة (معاني) القرآن أصبح رأياً مجمعاً على جوازه.. بل وجوبه.. بعد أن جادل فيه محدودو الرؤية سامحهم الله... وبهذا الموقف العقلاني الرائع، وأمثاله، قَدَّم (وجدي) موقفاً إيجابياً من التفاعل الحضاري.. ليس بالرفْض أو التقوقع، بل بالثقة وتقدم ديننا وحضارتنا للإنسان..